



حماية القطع الفنية والآثار القديمة خلال فترة الحرب

تقييم الماضي والإعداد للمستقبل

الرائد . جيمز ب. كوجبيل، الجيش الأمريكي

في الصورة، عربة مدفع ذاتي الحركة
تخرس المدخل الرئيسي للمتحف
الوطني العراقي في بغداد في
يوم 21 يونيو/ حزيران 2003. تم
نهب المتحف بعدما انهار القانون
والنظام.

(إيه. إف. بييه، رمزي حيدرا)

«بعد فترة قصيرة سننشق طريقنا عبر قارة أوروبا في معارك جرى تخطيطها
للحفاظ على حضارتنا. وسنجد خلال تقدمنا المحتم، آثاراً تاريخية ومراكزاً
ثقافية تقف رموزاً أمام العالم لكل ما نقاتل من أجل الحفاظ عليه. إن
مسؤولية كل قائد حماية وإحترام هذه الرموز متى أستطاع ذلك.»
—الجنرال دوايت دي. أيزنهاور في رسالة موجهة إلى الجنود عشية غزو
نورماندي

في العاشر من شهر أبريل / نيسان عام 2003، بعد يوم من إسقاط تمثال
الرئيس الخلع صدام حسين في ميدان الفردوس والذي يمثل سقوط بغداد
ووقوعها في قبضة القوات الأمريكية، نهب اللصوص المتحف الوطني
العراقي. وبانتهاز فرصة الإنهيار السريع للجهاز الأمني للدولة والفوضى التي
خلفها هذا الإنهيار، تمت اللصوص بالحرية في سلب ما يريدون. وقد أشارت
التقارير الأولية بأن عدد التحف التي قيل أنها سرقت ونهبت من المتحف
تصل إلى 170.000 قطعة من التحف ويُعدُّ هذا رقماً مغالاً فيه، ولكن الخبراء
يتفقون على أن ما لا يقل عن 15.000 تحفة، تمثل كنوزاً لا تقدر بثمن وتُعدُّ
جزءاً لا يتجزأ من التراث الثقافي والحضاري للعراق، تعرضت للنهب والسرقة
دون تدخل حقيقي وجاد من جانب القوات العسكرية الأمريكية لمنع وإيقاف
هذه الأعمال. إن عجز الولايات المتحدة الأمريكية للحيلولة دون وقوع هذه
الكارثة أثار كثيراً من التساؤلات حول المدى الذي تدمج به القوات المسلحة
كافة الإعتبارات الثقافية في الخطط التي تضعها. كما أن الأمثلة التاريخية

Protection of Arts and
Antiquities during
Wartime: Examining the
Past and Preparing for
the Future

Major James B. Cogbill,
U.S. Army

Available in English at: [http://
usacac.leavenworth.army.mil/
CAC/milreview/English/JanFeb08/
CogbillEngJanFeb08.pdf](http://usacac.leavenworth.army.mil/CAC/milreview/English/JanFeb08/CogbillEngJanFeb08.pdf)

المستقاة من الحرب العالمية الثانية توضح أن التخطيط من أجل حماية الفنون والآثار القديمة كان في الماضي جزءاً هاماً جزءاً لا يتجزأ من التخطيط العسكري الأمريكي.

منذ الحرب العالمية الثانية، ظلت ولا تزال الإعتبارات الثقافية والحضارية الأوسع نطاقاً، متمثلة في عوامل اللغة وإعتبارات تتعلق بالتقاليد الخاصة بأهل البلاد جزءاً رئيسياً ينبغي أن يشملها التخطيط العسكري، ولكن التخطيط المحدد اللازم من أجل حماية التحف والمتاحف وكل ما يتعلق بثقافة وحضارة البلاد يتم على أساس تخصصي فقط. برغم النجاحات التي شهدتها عمليات الحماية للكنوز الحضارية خلال فترة الحرب، فإن العجز عن حماية المتحف الوطني العراقي إبان فترة الغزو الأمريكي يوضح الحاجة إلى وجود آليات دائمة وقديرة من أجل العمل وبصورة فعالة على أخذ كافة التدابير في الإعتبار واللجوء الى الإجراءات الكفيلة لحماية التراث الثقافي الحضاري للبلاد عند وضع العسكريين خطط الحملات العسكرية الخاصة بها.

حماية الكنوز الثقافية والحضارية : الحرب العالمية الثانية

بعد القصف الجوي الياباني لميناء بيرل هاربر يوم السابع من ديسمبر كانون الأول عام 1941، جرت التعبئة الأمريكية العامة لحوض الحرب. وأنضمت جميع أدوات القوة الوطنية، العامة والخاصة، في تعاضد للمساهمة في الجهود الحربية. ومثال بسيط على هذا التعاضد المتمثل بالتعاون الذي تم بين الجامعة والحكومة بهدف حماية الفنون والآثار القديمة¹ في عام 1942، آثار جورج ستاوت، في متحف فوج للفنون التابع لجامعة هارفارد، موضوع المواقع الثقافية الحضارية البارزة التي قد تكون معرضة للأضرار عند اشتعال الحرب في أوروبا، وفي شهر يناير/كانون الثاني من عام 1943، دعا المجلس الأمريكي للجمعيات الثقافية (ACLS) إلى عقد لجنة لمناقشة ذلك. تألفت اللجنة من بعض قادة الفكر البارزين من أمثال رئيس معهد الآثار ويليام دينوسمور من كولومبيا، وفرانسيس هنري تايلور من متحف نيويورك المتروبوليتان، ودافيد فينيلي من الصالة الوطنية للعرض الفني، وبول زاكس من جامعة هارفارد.

وقد قام الرئيس فرانكلين روزفلت إستجابة لهذه الجماعة الأكاديمية وأساتذة الفنون، بتشكيل لجنة أمريكية من أجل حماية وإنقاذ الآثار الفنية والتاريخية القديمة في مناطق الحرب، وعيّن دينسمور وقاضي المحكمة العليا أوين روبرتس لترأسها. من ثم قامت القوات المسلحة أيضاً بتأسيس مؤسسة خاصة بها "مكتب النصب التذكارية والآثار والفنون الجميلة والأرشيف" (A&MFA) والتي تكون مسؤولة عن الحد من أضرار الحرب على المتاحف والتحف

الرائد جيمز بي. كوجبيل، الجيش الأمريكي، هو ضابط استخبارات عسكرية مكلف حالياً بالعمل كمتدرب في مكتب وزير الدفاع. وقد خدم الرائد كوجبيل في القارة الأمريكية، وألمانيا، والبلقان، وأفغانستان، ومؤخراً جداً في العراق. كما أنه يحمل شهادة البكالوريوس في الخدمة الخارجية وشهادة M.P.A من جامعة جورج تاون.



في الصورة، الدكتور جابر خليل إبراهيم الى اليسار . المجلس الوطني للآثار القديمة والتاريخية، والعقيد صفاء الدين مهدي صالح، من الشرطة العراقية، بمسكان بقناع الوركاء، منحوتة من الرخام يعود تاريخها إلى سنة 3100 قبل الميلاد، التقطت الصورة في 23 سبتمبر/ أيلول 2003. لقد ظل قناع الوركاء المسترد مفقوداً من المتحف الوطني العراقي منذ تحرير العراق.

وفي ساعة الصفر عند غزو نورماندي ، من أجل التأكد من أن الكنوز الثقافية سوف يتم حمايتها، وتصنيفها، وفرزها، وتنظيفها، وترميمها. وفيما بعد وبناءً على توجيهات الرئيس هاري ترومان، قامت الولايات المتحدة بإعادة هذه الكنوز الثقافية إلى دولها الأم صاحبة الحق فيها.

وبعد الحرب، كان الجنرال لو شياس كلاي، المفوض العام لألمانيا خلال الاحتلال الأمريكي، وسيطاً أساسياً في لعب الدور لغرض إسترجاع جميع الكنوز الفنية الألمانية. وعندما قام بعض أفراد الجيش الثالث الأمريكي بإنقاذ بعض القطع الفنية من مجموعة كايزر فريدريك، والتي تشمل بالتالي 10 أعمال قام بها رمبرانت، من مناجم الملح في ميركيرس، بألمانيا، أمر كلاي بشحن هذه المجموعة وإعادتها إلى المعرض الوطني الأمريكي للفنون لترميمها.²

والمواقع الثقافية وإعادة أي مواد أو تحف مسروقة يتم العثور عليها من خلال الأنشطة العسكرية المختلفة.

وتم ضم الضباط من "مكتب النصب التذكارية والآثار والفنون الجميلة والأرشيف" A&MFA إلى القوة العسكرية عند بداية غزو إيطاليا في شهر سبتمبر/أيلول 1943 وأحرزوا نجاحاً في الحد والتقليل من الأضرار على الكنوز الفنية الإيطالية التي تنجم بسبب القصف المدفعي والجوي . على سبيل المثال تمكن أعضاء من مكتب الخدمات A&MFA من إقناع قادة الحلفاء بأن يتجنبوا القتال داخل فلورنسا، وهي مدينة إعتبرها الكثيرون، العاصمة الثقافية والحضارية لإيطاليا. إضافة لذلك، فقد كان منتسبو "مكتب النصب التذكارية والآثار والفنون الجميلة والأرشيف" A&MFA حاضرين في اليوم المحدد للغزو

التراث الثقافي إبان الحرب العالمية الثانية. إن هذا التفاني والإخلاص تجلى بوضوح في الطريقة التي قامت بها أمريكا بشكل مدروس في التخطيط والإعداد، وتنفيذ مهمتها في حماية هذه القطع النفيسة بكل اقتدار.

نهب متحف بغداد

وفي تناقض واضح وصريح للجهود الناجحة في حماية الفن والآثار القديمة إبان الحرب العالمية الثانية، جاءت أعمال السرقة والنهب للمتحف الوطني العراقي في بغداد دليلاً على عجز التخطيط والإعداد بصورة مناسبة لحماية المواقع الثقافية والنصب التذكارية والصروح الحضارية خلال عمليات القتال. كما أن قصة التخطيط التي حدثت تمدنا برؤية عن الوجوه التي عجزت فيها هذه الاجراءات وعن أسباب

ثم قام بإحباط محاولة قام بها أعضاء الكونجرس من أجل الإستيلاء على اللوحات كتعويضات حرب. (ومع ذلك سمح بعرض هذه الأعمال خلال معرض ضخم في عام 1948 تنقل في 13 مدينة أمريكية وجمع 2 مليون دولار أمريكي لصالح إغاثة الطفل الألماني). وفي عام 1950 أعادت الولايات المتحدة الأمريكية جميع اللوحات إلى برلين، حيث أصبحت جزءاً من مجموعة دولة بروسيا. لخص كلاي نجاح جميع هذه الجهود المبذولة في سبيل حماية واستعادة التراث الثقافي والحضاري لألمانيا قائلاً: "رماً لا يوجد في تاريخ العالم أجمع جيش غاز سعى قليلاً جداً لما يخصه وعمل بإخلاص وهمة على حماية كنوز الآخرين."³

كل هذه الأعمال تبين وبكل وضوح الإلتزام الذي كان لدى القيادة الأمريكية من أجل الحفاظ على هذا



في الصورة، العقيد ماثيو بوجدانوس، من مشاة البحرية الأمريكية، ترأس وحدة التحقيق في العثور على الكنوز المنهوبة التي سرقت من المتحف الوطني العراقي يقوم بعرض بعض القطع على الصحافة في بغداد . 16 مايو/ أيار 2003.

تاريخ الشرق الأدنى والآثار، مع الدكتور جوزيف جيه. كولينز، وهو نائب مساعد وزير الدفاع لعمليات الاستتار، وثلاثة أعضاء آخرين من طاقم كولينز بالبنتاجون.⁵

وخلال الاجتماع قام مؤرخو الفن الثلاثة بمناقشة مخاوفهم حيال هذه المواقع الدينية الثقافية والأضرحة المعرضة لشتى الاحتمالات داخل العراق. هذا إلى جانب مناقشة عدد من الموضوعات التي أثارها كل من أندرسون وهوكنز في مقالته. كما أنهم كانوا متخوفين أيضاً وبصفة رئيسية من تهديد قذائف الدبابات أو القنابل التي قد تكون سبباً في تصدع أو تخطم الآثار القديمة، والأبنية الدينية، والمواقع الثقافية والأثرية الأخرى. وناقشوا من ناحية أخرى، خطر السرقة ودونوا مخاوفهم تحديداً بالتلميح بأن المتحف الوطني العراقي في بغداد الذي قالوا عنه أنه المستودع الذي يضم كل شيء تم العثور عليه بعد عمليات التنقيب في العراق التي كانت تجري منذ عام 1921، وبالتالي فإن هذا المتحف يعدّ أهم مؤسسة ثقافية وحضارية في العراق.

وطبقاً لما يتذكره أندرسون عن الاجتماع، فإن المسؤولين في البنتاجون أوضحوا بأن لديهم خطة تقضي على هذه المخاوف وكانوا على دراية وعلم بعشرات المواقع الثقافية والصروح والنصب التذكارية الأثرية المهمة الأخرى التي قد لا تتحمل التصدع ومن المحتمل تعرضها للمخاطر. ردّ جيبسن بأن العدد الفعلي للمواقع الأثرية يقترب من بضعة آلاف. وإستناداً إلى هذا الإختلاف، وافق مسؤولو وزارة الدفاع على الاجتماع لاحقاً مع جيبسن لمراجعة وتنقيح قائمة المواقع الثقافية والأثرية التي لديهم. بعد اجتماعهم بالسيد/ كولينز وطاقمه، قام كل من أندرسون وهوكنز بزيارة وزارة الخارجية لإعطاء موجز مماثل عن قلقهم. كما بدأ المسؤولون في وزارة

ضرورة بناء الهيكل الدائم لحماية الكنوز الثقافية ذات القيم الحضارية خلال فترة الحرب.

وفي أواخر شهر نوفمبر/تشرين الثاني من عام 2002، وعلى نفس نهج جورج ستاوت، الذي أثار، منذ ستة عقود مضت، موضوع حماية المناطق الثقافية والنصب التذكارية الحضارية في زمن الحرب بأوروبا، قام الدكتور/ ماكسويل أندرسون ودكتور آنتون هوكنز بنشر مقالة ليس لها حدود للتفسير، في صحيفة الواشنطن بوست بعنوان "الحفاظ على ماضي العراق".⁴

وفي تلك الأونة، كان أندرسون رئيساً لإتحاد مدراء متاحف الفنون الجميلة، وكان هوكنز رئيساً للمجلس الأمريكي للسياسة الثقافية. وناشدت مقالتهم القادة الأمريكيين لإجراء تخطيط منظم وعلى مستوى الحكومة من أجل حماية المناطق الدينية والثقافية والأضرحة الحضارية العراقية. ودعموا وتأييداً لهذه المناشدة، قالوا أن أرض العراق، والتي كانت قديماً بلاد ما بين النهرين Mesopotamia كانت تمثل مهد الحضارة الأزلي، وبالتالي لا تشمل أو تمثل التراث الثقافي للعراق فقط ولكن للعالم أجمع. كما حثوا على اتخاذ الإجراءات من أجل حماية المواقع الدينية والثقافية للعراق، وطالبوا بالحيلولة دون وقوع عمليات السلب والنهب والتدمير. وفي نهاية الأمر، أشاروا إلى أن العلماء والأساتذة في الولايات المتحدة الأمريكية من لديهم دراية ومعرفة بتاريخ بلاد ما بين النهرين والتاريخ الاسلامي سوف يرغبون في العمل على تحديد المواقع المهتدة بذلك. وخلال فترة وجيزة من نشر هذه المقالة، تلقى أندرسون اتصالاً هاتفياً من مسؤول بالبنتاجون يطلب مقابله.

وفي 24 يناير/كانون الثاني 2003، تقابل أندرسون وهوكنز والدكتور ماكجواير جيبسن، وهو أستاذ في المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو وخبير في

بإرسال رسالة إلى كبار مسؤولي القوات المسلحة الأمريكية في شهر مارس/ آذار السابق مندرين إياهم من التهديد الذي قد يستهدف أو يتعرض له المتحف الوطني العراقي . وقد نصت الرسالة بالتحديد على ضرورة حماية البنك المركزي العراقي. وكذلك على أن المتحف الوطني سيحتاج الى الحماية من اللصوص في الترتيب الثاني من الأولوية.⁷

ولسوء الحظ ، فقد بينت الأحداث الأخيرة بشكل واضح أن القادة العسكريين لم يكتثروا لهذه التحذيرات التي جاءت بها الرسالة .

بعد الإجتماع الأول في البنتاجون. مكث الدكتور جيبسن ليشارك بمعلوماته الغزيرة عن المواقع الأثرية والآثار القديمة في العراق. وفي اليوم التالي أعطى لمسؤولي وزارة الدفاع قرصاً مدمجاً يحتوي على كافة المعلومات اللازمة لجميع المواقع الأثرية المعروفة التي تحتاج الحماية. وبعد مرور أسبوع ونصف. قابل الدكتور جيبسن الدكتور جون جيه. كاوتز. رئيس شعبة العمليات. في قسم تحليل العمليات والبيئة بوكالة استخبارات الدفاع DIA.

في ذلك الإجتماع. سعى مسؤولو وكالة استخبارات الدفاع في الحصول على مزيد من المعلومات حول المواقع التي يجري فيها الحفر والتنقيب عن الآثار.

وفي رأي جيبسن. لم يكن المحللون يرغبون في الحصول على مزيد من المعلومات لكي يتأكدوا من أن المواقع يتم حمايتها. ولكن للتأكد من أن القائمين على التخطيط التكتيكي العسكري يمكنهم التمييز بين مواقع الحفر والتنقيب المدنية عن مواقع مدفعية الدفاع الجوي المصورة التي تم حفرها والفرق بينهما.

وبمجرد أن بدأت القوات الأمريكية في الاقتراب من بغداد في مارس/ آذار 2003. أرسل دكتور جيبسن عدة

الخارجية أيضاً متفهمين أكثر لطبيعة ونوع التهديد الذي يواجه التراث الثقافي للعراق. ومع ذلك فإن قدرتهم على إتخاذ الاجراء السليم كانت مقيدة بسبب المنطق التالي: أن وزارة الدفاع كان لها الريادة في جميع خطط الغزو التي تتعلق بالعراق .

وطبقاً لجميع الآراء والشواهد فإن البنتاجون كان قد أحكم قبضته بقوة على زمام خطط ما قبل الحرب ولم ينجح في توحيد وتكامل جهود الوكالات والأجهزة المدنية التابعة للحكومة. على سبيل المثال. ففي نفس الفترة الزمنية من شهر يناير/ كانون الثاني 2003. والتي جرت فيها هذه الإجتماعات . كان البنتاجون قد بدأ في إقامة مكتب متخصص في إعادة التعمير والإغاثة الإنسانية ORHA. والذي كان من المفترض أن يضم عناصر مدنية في جهود التخطيط لما بعد الحرب.

السيد دوجلاس جيه. فايت وكيل وزارة الدفاع السابق للشؤون السياسية. الذي كتب بالتعاون مع مستشار الأمن الوطني السيد/ ستيفين هادلي ميثاق مكتب ORHA. كان قد صرح بأنه من الممكن لمكتب ORHA أن يكون مشروعاً ناجحاً لو كان قد أنشئ منذ 20 أو 30 عاماً مضت. ولم ينشئ على أساس متخصص قبل الغزو مباشرة.⁸ وهنا يجادل فايت صواب فكرة أن الحكومة الأمريكية بحاجة إلى آلية دائمة من أجل ضم قدرات وإمكانيات مدنية إلى الجهود العسكرية. وبالمثل. فإن تجنب تدمير مواقع تراثية ثقافية خلال فترة الحرب يعتمد بشكل تام على وضع التخطيط اللازم لحمايتها وأن تدخل في الصورة مؤسسة تحقق هذا الغرض .

ونتيجة لإفتقار مكتب ORHA إلى الخبرة والكفاءة. لم يتم دمجها أبداً بالقيادة المركزية ومن ثم لم ينل نصيباً وفيراً من النجاح. والدليل الحي على هذه المشكلة. فقد قام مكتب ORHA وبشكل واضح

العراقيون بالداخل في عمليات السرقة والنهب للوزارات الحكومية السابقة، و للمتحف الوطني من 10 إلى /نيسان 12 أبريل 2003 تقريباً، دون وجود

إن تجنب تدمير مواقع التراث الثقافي خلال فترة الحرب يعتمد بشكل تام على وضع التخطيط اللازم لحمايتها في صورة مؤسسية.

قوات كافية في بغداد للتعامل مع الفلول الباقية للمقاومة والعمل في نفس الوقت على التحكم في عمليات النهب والسرقة، سمح الجيش الأمريكي في بادئ الأمر باستمرار عمليات النهب والسرقة بلا قيود. علاوة على ذلك وطبقاً لمتحدث رسمي عن الجيش، فإن القوات الأمريكية في بغداد كانت لديها أوامر بتأمين القصور الرئاسية وأي مواقع من المحتمل أن يكون بها أسلحة دمار شامل، ولكن لم يكن هناك أوامر محددة لتأمين المواقع الثقافية.¹⁰

رغم المناشدات التي قدمتها إدارة المتحف الوطني، لم تقم القوات الأمريكية بوقف عمليات السرقة لما يصل إلى حوالي مالا يقل عن 15.000 قطعة فنية. فهناك قائمة طويلة من التحف والكنوز الفنية المفقودة: مثل أبواب خشبية من العصر العباسي، وتمثال من عصر السومريين والأكديين والحضريين، و 5.000 ختم إسطواني، من حقب مختلفة، ومواد ذهبية وفضية، وقلادات، ودلايات، وقطع سيراميكية عتيقة،¹¹ وزهرية واركما المقدسة، وهي أقدم الآواني المحفورة من الحجارة، وقناع الوكاء، وهو أول نحت طبيعي لوجه الإنسان، ورأس ثور ذهبي زين القيثارة الذهبية للملكة شبعاد بمدينة أور القديمة جنوب بلاد

رسائل البريد الإلكتروني إلى المسؤولين في وزارة الدفاع محذراً إياهم مرة ثانية من التهديدات المرتقبة والمحتملة التي قد تطول المتحف الوطني العراقي، وقد هاله الذعر عندما إستجابوا بالتساؤل، "أين هو هذا المتحف؟" وأرادوا الحصول على إحتاثات محددة وأسئلة أخرى كان جيبسن قد قام بتناول موضوعها وقدم أجوبتها مسبقاً والتي كان قد فكّر فيها ظناً منه أن ماقدمه كان قد تم حسابه في خطة الحرب.

رغم الفوضى وإرتباك اللحظات الأخيرة هذه، فيبدو أن قائمة المواقع الثقافية كانت ضمن القوائم التي وضعها المخططون العسكريون للمناطق التي يمنع ضربها أو إطلاق النيران عليها. وبالفعل ووفقاً للدكتور كولينز، فإن عمليات التدمير ضيقة النطاق للمواقع الثقافية بواسطة الأعمال العسكرية الأمريكية المباشرة تُعد قصة نجاح لم تقدر في التقارير الاخبارية بصورة كافية. كما ذكر أيضاً "إن تقليص الأعمال القتالية على الأهداف والتي تأكدت في عدم ضرب معابد بابل الهرمية بقنابل الهجوم المباشر المشترك (JDAM)، حتى لو كان هناك قناصة في قممها العليا كان إنجازاً رائعاً."⁸

وطبقاً لأغلب المصادر، فإن الخطط الأولية لحصار بغداد تطلبت من المشاة الميكانيكية والقوات المدرعة في الجيش الأمريكي بأن تحاصر المدينة بينما حررت قوات المشاة الخفيفة المدينة بالكامل. وبدلاً من ذلك، ففي السابع من أبريل/نيسان 2003 قامت فرقة المشاة الثالثة بعملية "مسار الرعد" الشهيرة، وهي عملية إستطلاع مدرعة في وسط بغداد. وقد أدى هذا العمل الحاسم القوي وبصورة مباشرة إلى إنهيار دفاعات صدام وسقوط بغداد في يومين فقط.⁹

ولسوء الحظ، ساهمت السرعة التي تحققت بها النصر في إحداث فراغ أمني منظور فيما بعد. بدأ

التحف المفقودة. وبمساعدة قوات الشرطة الدولية - الإنترنتول - ومنظمة للأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، (اليونسكو)، وبعض الجماعات الدولية. وقد نجحت الجهود الأمريكية من أجل إسترجاع الآثار المسروقة نجحاً كبيراً. وحتى الآن تم ضبط وإرجاع ما يزيد على 5.500 قطعة من 15.000 قطعة مسروقة أو مفقودة إلى المتحف، إن أغلبية ما يقرب من 9.500 من القطع الفنية المفقودة تُعد أصغر في الحجم. مما يجعلها أسهل في الإخفاء مثل الأختام الاسطوانية، والأحجار الكريمة والمجوهرات.

إضافة لما تقدم فمن خلال المساعدة الأمريكية التي بلغت 2 مليون دولار أمريكي من وزارة الخارجية ومعهد باكارد للمساعدات الانسانية في لوس ألتوس، كاليفورنيا)، تم ترميم وتحديث المتحف.¹⁴ على سبيل المثال، تم تركيب نظام أمني إلكتروني حديث ومعاصر إلى جانب بيوت للحراسة، وأسوار، وكاميرات مراقبة.

ما الخطأ الذي وقع؟

لماذا يبدو الفشل في حماية الفن والقطع الأثرية والتاريخية العراقية من عمليات النهب التي وقعت عام 2003 متناقضاً مع النجاحات التي تحققت إبان الحرب العالمية الثانية؟ وكيف يتسنى تحسين التخطيط لحماية التراث الثقافي أثناء الحرب في المستقبل؟ لكي نكون واضحين، فإن التعبئة الأمريكية للحرب العالمية الثانية كانت مختلفة تماماً عن عمليات التحضير والإعداد الأمريكية لغزو العراق. في الحرب العالمية الثانية، قامت الدولة بالكامل بإعلان التعبئة الحقيقية للحرب. وقامت العائلات بزراعة حدائق النصر، وأصدرت الحكومة صكوك الحرب، وازداد إنتاج الجمعيات الصناعية العسكرية بشكل محموم، وبإختصار فإن جميع

ما وراء النهر، وتمثال باسيتكي، واللبوءة التي تهاجم العاج النوبي، وزوج الثيران النحاسي نينهورساج.

12

واستجابة لصرخة الصحافة الدولية. ذكر رئيس الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز "إنها مثلها مثل أي شيء آخر مسألة أولويات". طبقاً لمايرز، فإن الحاجة إلى مواجهة عمليات القتال المستمرة للأعداء طغت وتغلبت على الحاجة إلى حماية المتحف.¹³ كان وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد فجاً حينما سئل عن عمليات النهب الشائعة أجاب على نحو لا يُنسى "أشياء مثل هذه تحدث". كما إن أحد الإنتقادات البارزة التي وجهت إليه من قبل الصحافة وقتها أن الجيش الأمريكي تمكن من حراسة وزارة النفط ببغداد ولكنه ترك الوزارات الأخرى والمتحف تحت رحمة اللصوص.

أخيراً، في صبيحة السادس عشر من أبريل / نيسان 2003، وصلت فصيلة دبابات أمريكية إلى المتحف وأقامت حراسة. وبعدها بفترة قصيرة،

كان الجنرال آيزنهاور قد أعلن قبل أكثر من ستين سنة أنه من "مسؤولية كل قائد عسكري حماية واحترام" رموز التراث الثقافي للبلد خلال فترة الحرب.

ترأس العقيد ماثيو بوجدانوس من مشاة البحرية الأمريكية، فريق التنسيق المشترك بين الوكالات الذي ضم ممثلين مدنيين من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وسلطات الهجرة والجمارك، وإدارة شرطة نيويورك للبدء بعملية تحقيق رسمية في عمليات السلب والنهب وبدء عمليات إسترداد



في الصورة . عراقيات يفحصن قطعاً فنية وحقفاً ثمينة تم استردادها الى المتحف الوطني العراقي في 10 نوفمبر/ تشرين الثاني 2003.

التي تعرفها القوات الأمريكية، هذا ناهيك عن المواقع الثقافية¹⁵ ولا يبرر أي من هذه الأمور إفتقار العسكرية الأمريكية إلى الإستعداد والتحضير المسبق لحراسة وحماية الكنوز الثقافية للعراق بعد سقوط بغداد، ولكنهم يقدمون بعض العوامل الخففة.

هناك عدة مجالات كان من الممكن للتخطيط فيها أن يعزز عملية حماية المواقع الثقافية. أولاً كان ينبغي أن تتم عملية التخطيط بأسرع ما يمكن، وبإشتراك أوسع نطاقاً من الوكالات والأجهزة المدنية. إذا كان إنشاء ORHA قد تم قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة أشهر، وكان من الممكن الحصول على فرصة أعظم بكثير لأجل الإستفادة من الخبرة في وزارة الخارجية، والمنظمات غير الحكومية الأخرى، والكيانات التي

وسائل وعناصر القوة الوطنية إشتراك في الجهود الحربي. هذه التعبئة العامة تُساعد على توضيح سبب إجتماع هيئة موقرة من خبراء المجلس الأمريكي للمجتمعات المتعلمة (ACLS) عام 1943 لتقرير كيف يُمكنهم المساهمة في جهود الحرب (وهذا ما أدى بالرئيس لتكوين لجنة من الخبراء والعسكريين من أجل تشكيل مكتب خدمات (A&MFA). وعلى النقيض تماماً، فإنه قبل بادية حرب العراق، تم تعبئة القوات العسكرية، ولكن الوكالات والأجهزة الحكومية الأخرى والقطاع الخاص قامت بأداء دورها التجاري كما هو معتاد. بينما حافظ كل من أندرسون وهوكنز والجهود التي بذلها جيبسن على مستوى عالي ونبل وتماشى مع السابقة التي قامت بها ACLS، ولكنهم لم يتمكنوا من مجارات المقاييس على نفس النمط كما لم ينل مجهودهم في ذلك وزناً كما كان الحال مع الجهود الأكاديمية التي تمت إبان الحرب العالمية الثانية.

علاوة على ذلك، ففي ما يتعلق بالتوقيت، قامت ACLS بإعداد وخصير تقييمها قبل غزو إيطاليا بثمانية شهور كاملة، وقبل غزو فرنسا بعام ونصف العام، بينما تم عقد الإجتماعات في البنتاجون عام 2003 في أقل من ثلاثة شهور قبل الغزو. كما أن النقص النسبي في زمن الإعداد للعراق قد أعاق بدون شك تكامل حماية المواقع الثقافية في عملية التخطيط.

وفي نهاية الأمر، فإن القوة التي تم إرسالها إلى العراق كانت مجرد كسر أو جزء صغير من تلك القوة التي غزت أوروبا. كما أن الحجم الصغير نسبياً للقوة التي أرسلت عام 2003 تعد السبب الرئيسي لفشل العسكرية الأمريكية في حماية المتحف الوطني. وطبقاً للدكتور كولينز، لم يكن هناك حتى قوات كافية لحراسة أماكن الذخيرة ومخابيء الأسلحة



بستاني هي إحدى القطع الأثرية التي كانت قد سُرقَت من المتحف الوطني العراقي وتم التعرف عليها وأرجاعها في شهرنوفمبر/ تشرين الثاني 2003

علاوة على ذلك، فإن هذا المكتب كان مسؤولاً وبصفة أساسية عن عمليات الإستقرار وبكلمة أخرى للمهمات التي يفهم عموماً أنها تتم بعد ختام العمليات القتالية. وهذا يعني أن لا أحد رأى بأن حماية المواقع الثقافية هي وجه من المراحل القتالية للعملية، بدلاً من ذلك فإنها جاءت في مرتبة ثانوية أطلقت عليها العسكرية «المرحلة الرابعة»، وهي مرحلة الإستقرار وإعادة الإعمار لأي عملية. وهذا قد يفسر بالطبع سبب عدم أخذ مبدأ أمن المتحف الوطني للأولوية حتى بعدما توقفت عمليات القتال الواسعة النطاق في المدينة. وحينما سئل كولينز بعد الحرب عن سبب عدم إصدار أوامره للقادة بوقف عمليات النهب والسرقه للمتحف، أجاب، «نحن عبارة عن متجر لصنع السياسة ... ولسنا معنيين بإرشاد العمليات العسكرية»¹⁷.

تعمل ما بين الحكومات مثل اليونسكو. وكما جاء على لسان الدكتور أندرسون، فإن المسؤولين بوزارة الخارجية بدوا على دراية وإدراك أوسع للمخاطر التي تهدد المواقع الثقافية داخل العراق. ولكنه أبعدها إلى مرتبة ثانوية، وربما إلى دور لا يُقدَّر في العملية التخطيطية. وجهاً آخر من الأوجه التي تشكل معضلة في عملية التخطيط للعراق وتمثل في تفويض المسؤولية عن حماية المواقع التراثية الثقافية إلى نائب مساعد وزير الدفاع لعمليات الإستقرار. وحسبما جاء على لسان الدكتور كولينز، الذي كان يشغل المنصب قبيل وقوع الحرب، كان هذا المكتب فعلياً «درج النفايات لسياسة مكتب وزير الدفاع»، وتولي مهام ومسؤوليات آثرت بعض الوكالات والهيئات الأخرى عدم التعامل معها.¹⁶ وفي وقت الإجتياح، كان هذا التقييم دقيقاً لحد ما.

وأهمية الفن والثقافة في الدول حول العالم. حيث أن هذه المعرفة وهذا الإلمام يكمن في دور الوكالات المدنية التابعة للحكومة الأمريكية، والأكاديميات، والمنظمات غير الحكومية، والمنظمات العاملة فيما بين الحكومات. فالعلاقة العسكرية مع هذه المنظمات لا بد وأن يتم تنظيمها في سياق رسمي كي يتمكن الخبراء من لعب دورهم الحيوي في وضع الإعتبارات الثقافية على درجة عالية من الأهمية أثناء عملية التخطيط العسكري.

وقد أقرت الحكومة الأمريكية فعلاً بالحاجة إلى تعزيز القدرات المدنية لهذا النوع من العمليات العسكرية التي تواجهها اليوم. وقامت من أجل ذلك بإنشاء مكتب المنظم في شئون إعادة الإعمار والإستقرار التابع لوزارة الخارجية (CRS/S)، والتي أمر الرئيس بتكليفها بالتنسيق وبذل كافة الجهود اللازمة من أجل الإعداد والتخطيط لتنفيذ عمليات الإستقرار وإعادة الإعمار.

ليس هذا فحسب بل قام مكتب CRS/S بمهمة مكثمة لبناء فيلق مدني إحتياطي (يعتمد على الإحتياطي العسكري الأمريكي) من أجل الإستفادة من الخبرة المدنية في كل من القطاعين العام والخاص. ويمكن لكل من مكتب CRS/S والفيلق المدني الإحتياطي المساهمة في بناء قدرات حكومية أمريكية قادرة على التخطيط من أجل حماية المواقع الثقافية خلال فترة الحرب.

وعليه ينبغي على الحكومة الأمريكية إنشاء هيكل دائم وخاص داخل وزارة الدفاع من شأنه، وكحد أدنى، التأكد من وجود تخطيط ثقافي ملائم ومنتشر على جميع مستويات القيادة العسكرية. وينبغي مراعاة هذا التنظيم بالكامل في العمليات والإدارات المعنية بالسياسات، لا أن يتم تهميشها كفكرة في "درج النفايات" التابع للبنتاجون. كما

ونبين ثانية أن العامل الرئيسي النهائي الذي ساهم في فشل القوات في حماية المتحف، هو أن الآلية المستخدمة في الإشراف على المهمة أسندت أرجحاً. وفي الوقت الحالي ما من هيكل دائم في وزارة الدفاع أو في أي وكالة من الوكالات المدنية الحكومية مسؤول عن الإشراف على حماية الفنون والآثار التاريخية خلال وقت الحرب. وكما لوحظ سلفاً، فإنه خلال الحرب العالمية الثانية قام الرئيس بتشكيل لجنة أمريكية من أجل حماية وإنقاذ الآثار الفنية والتاريخية في مناطق الحرب، وقامت المؤسسات العسكرية بتشكيل خدمات "مكتب النصب التذكارية والآثار والفنون الجميلة والأرشيف" A&MFA. ولكن هذه المؤسسات لم تبقى كثيراً وأختفت بعد نهاية الحرب. كما أن الإفتقار إلى هيكل قوي يؤكد في نهاية الأمر على أن حماية الموقع الثقافي سوف تستمر بصورة مستقلة، لتجعل بذلك أي عمليات تدميرية للفنون والآثار التاريخية والثقافية خلال زمن الحرب في المستقبل أمراً لا بد منه.

التخطيط من أجل حماية الفنون والآثار التاريخية القديمة

من خلال دراسة المشاكل التي لحصناها آنفاً، بات في الإمكان وضع القواعد من أجل العمل على تحسين عملية التخطيط اللازمة لحماية الفنون والآثار التاريخية القديمة. أولاً، يتعين تعزيز دور خبراء الثقافة في وضع الخطط اللازمة لحماية المواقع الثقافية والتنسيق بين هذه الخطط والخطط الميدانية ووضعها في إطار رسمي. وما لا شك فيه أن هذه الخطوة سوف تضمن بأن التخطيط لحماية المواقع الثقافية سوف يتم على أساس كونه أكثر من قاعدة شكلية. وبالتالي فلا ينبغي التوقع بأن يكون أفراد الجيش التابع لنا على خبرة عالية بموقع

مستمرة حتى اليوم. وبالرجوع إلى الحروب في الماضي نجد أنه مجرد فقدان أو تدمير هذه الرموز. فلا يمكن أبداً إسترجاع مثل هذا التراث. إن تلك المسؤولية تستمر في وقتنا الحاضر. كنوز المتحف الوطني العراقي تمثل التراث الثقافي الكامل الذي مزقته الخلافات والصراعات بين فئات مختلفة. كما تمثل كنوز هذا المتحف التراث الموحد للعالم أجمع. لهذه الأسباب، فإن أهمية حماية هذه المواقع لا يمكن ألا إعطاءها أهمية كبيرة. ذلك بالتأكيد على حمايتها وحماية هذه الفنون والقطع الفنية خلال الحروب المستقبلية. بذلك سنمنح تراثنا الثقافي الخاص فرصة أفضل بكثير للبقاء آمناً ومتاحاً للأجيال القادمة.

أنها سوف تكون مسؤولة أيضاً عن التنسيق وبصورة مباشرة مع أي من الوكالات المدنية التي يكون لها مسؤولية شاملة عن حماية الفنون والقطع الأثرية التاريخية القديمة. وربما الأكثر أهمية أن لا ينبغي التقليل من أهمية التخطيط الثقافي وأن يكون جزءاً من عمليات «المرحلة الرابعة». وما لم يكن مثل هذا التخطيط وجهاً رسمياً في جميع أوجه العمليات، فلن يتم تنفيذه على النحو المطلوب.

الخاتمة

قبل أكثر من ستين عاماً، أعلن الجنرال آيزنهاور أنه من «مسؤولية كل قائد حماية وإحترام» رموز التراث الثقافي للبلد خلال فترة الحرب. وهذه المسؤولية

الملاحظات

8. دكتور جوزيف جيه. كولينز، لقاء عقده المؤلف في 2 مايو/أيار 2007
9. وصفاً ممتازاً للواء سبارتان الثاني، مهمة فرقة المشاة الثالثة، على لسان دافيد زاكينو، صحفي ميداني، مسار الرعد: الهجوم المدرع للإستيلاء على بغداد (نيويورك: صحيفة الأطلنطي الشهرية، 2004).
10. أندرو لاولر، «زوبعة في بلاد ما وراء النهر» المجلة العلمية، الأول من أغسطس/ آب 2003، 582.
11. نهب المتحف العراقي، بغداد: التراث المفقود لبلاد ما وراء النهر القديمة، مقالة لميري بولك وأجيلا إم. إتش. شوستر (نيويورك: هاري إن. إبرامز للنشر، 2005).
12. ماثيو بوجدانوس، لصوص بغداد (نيويورك: بومزيري للنشر 2005)
13. دوجلاس جيهل وإليزابيث بيكر، «مطالبات الخبراء للبتناجون لم تنفذ المتحف» نيويورك تايمز، 16 أبريل 2006، ص. 5
14. روجر كوهين، «النشبح في متحف بغداد» نيويورك تايمز، 2 أبريل/ نيسان 2006.
15. لقاء مع دكتور كولينز
16. كاسي فينال، «مسؤول تدريب مهني، جو كولينز، نائب مساعد وزير الدفاع»، مقالات إخبارية عن خدمات القوات المسلحة، 23 يونيو/ حزيران 2003 (<http://www.defenselink.mil/news/newsarticle.aspx?id=2884>)
17. لاولر، 583

- عبارة في ماكسويل، وأندرسون، وأشتون هوكنز «الحفاظ على ماضي العراق» صحيفة واشنطن بوست، 29 نوفمبر 2002، إيه. 43.
1. ريتشارد أرندت، الملجأ الأول للملوك: دبلوماسية ثقافية أمريكية في القرن العشرين (واشنطن دي. سي: بوتوماك بوكس إنك، 2005)، 241-242.
 - 244-245. بالنسبة لهذه الفقرة فإنني أعتد ببقوة على البحث في هذا الكتاب.
 2. «الظهور الأخير»، 28 مارس 1949 (أنظر الموقع الإلكتروني: www.time.com/time/magazine/article/00.799936.917.0.html)
 3. أرندت، 245.
 4. أندرسون وهوكنز.
 5. وصف هذه الاجتماعات مشتق من لقاءات عقدها المؤلف مع الدكتور ماكسويل أندرسون في 23 أبريل 2007، والدكتور ماكجواير جيبسن في 24 أبريل/ نيسان 2007
 6. دوجلاس جيه. فايت، لقاء عقده المؤلف، بجامعة جورج تاون، 14 مارس/ آذار 2007.
 7. بول مارتن، وايد فوليامي، وجاري هيسليف، «صدرت أوامر للجيش الأمريكي لحماية المتحف المنهوب»، صحيفة الجارديان - أوبزرفر، 20 أبريل/ نيسان 2003.
 - <<http://www.guardian.co.uk/print/0.4651740-103550.00.html>>